الفصل العشرون

عاد عادل

رن جرس التلفون في منزل الدكتور عادل في الساعة الثانية ليلا فـنهض من فراشه وقد أخذ النعاس منه مأخذه ، وفتحت حياة عينيها لحظـة وسـمعت زوجها يقول وهو يرتدي ملابسه على عجل:

-ان أحد زبائني في حالة خطرة..

-آه لمهنة الطب! اننا لا نعرف راحة في الليل ولا النهار..

-الأمر يقلقني.. كانت أمه تستنجد بي بلهجة كأنما قد شـبّ حريـق فـي بيتها..

وانتهى الدكتور من ارتداء ملابسه فأكبّ على زوجتـه وقبّلهـا مودّعـا، وكانت حياة قد تنبّهت حواسها فقامت الى الغرفة الثانية وغطـت ولـديها، ثـم عادت الى فراشها، وأصغت الى إغلاق باب سيارة زوجها وهدير محركها، ثم عادت الى إغفاءتها.

كانت الليلة ربيعية دافئة والنافذة التي تطل على الشرفة مفتوحة وحياة في غلالة من الجرسيه تكشف عن ذراعيها وصدرها.. وخيل اليها وهي نائمة بأن النور قد أشعل في الغرفة فقالت لنفسها "عاد عادل" ولكنّ النوم كـان مـسيطرا عليها فلم تفتح عينيها.. أصبح نومها مستغرقا، فهي ترضع طفلا وتقوم بأعبـاء البيت فتشعر بقوتها قد أنهكت..

وأحست بلمسة باردة على ذراعها فابتسمت.. ان عادل يعابثها.. ولكنهـا شعرت بأنها أوهن من أن تستجيب لمعابثته، وغمغمت وطيف الإبتسامة علـى شفتيها: "أطفئ النور ونم".. فسمعت ضحكة مستهترة ترنّ في سمعها.. وفتحت عينيها بذعر واذا بمسدس مصوب الى ذراعها، وصوت أجش يسألها:

-أين زوجك؟

وهبت جالسة في فراشها.. فرأت رجلين آخرين يـدخلان مـن الـشرفة، وهتفت وقد أخذتها رعدة:

-من أنتم، وماذا تبتغون؟

-نريد زوجك؟ أين هو؟

-لست أدري.. جاءه تلفون في الساعة الثانية ليلا لأن أحد زبائنه كان في حالة خطرة!

-هل ذكر لك اسمه؟

-لا، كنت شبه نائمة حين خرج.. ولكن ماذا تريدون من زوجي؟ من أنتم وكيف تدخلون بيوت الناس من الشرفات؟

وضحك الرجل ضحكته العابثة مرة أخرى، فاستفاقت عائدة وقفزت الـى الباب وهي تنظر بذعر الى الغرباء الذين اقتحموا الغرفة وبأيديهم المسدسات.. وسمّرت في مكانها ولم تصدر صوتا وحان من حياة التفاتة الى ابنتها فشاهدتها ترتعش وقد شحب وجهها وجمدت عيناها، فجنحت حياة اليهـا وشـدتها اليهـا وضمتها مهدئة من روعها وقد تأجج غضبها..

-أهكذا تروّعون الأطفال؟ أليس من وزن للقانون والشرف لديكم؟

-اخرسي يا وله!

-وله! تقول لي وله؟ ياساقط يا دون؟.. وله زوجـات الرجـال الـذين لا يخجلون، والذين يحكمون بعقلية اللصوص وقطاع الطرق!

-اخرسي فلا ننكل بك.. فتشوا البيت!

-لن ترهبونا.. لا تدرون أي نمط من الناس نحن!

وخرج الرجال من الغرفة، وسمعت حياة وقع أقدامهم وهم يجوسون فـي البيت.. كانت أعصابها متوترة وقلبها يطرق بعنف وعائدة قربها تـشد عليهـا الوثاق، وهي ترتجف ويداها باردتان كالثلج، فهمست لها وهي تقبلها:

-لا تخافي! عائدة، عائدة!

وأخذت عائدة تجهش بالبكاء لكأنما تلك الكلمات المهدئة قـد فجّـرت مـا تعانيه من رعب مبهم.. كانت حياة تهدئ من روع صغيرتها وأعصابها مشدودة الى ما يجري في البيت، وسمعت صوت آنية تتحطم في غرفة الإستقبال:

-خرب الله بيوتهم! لقد كسروا مزهرية الكريستال التي أهدانا اياها أحمد!

وتلا ذلك وقع خطواتهم على الدرج المؤدي للعيادة، وفتح بـاب الخـروج وأغلق، فتساءلت حياة أتراهم ذهبوا؟

نهضت واقفة فأمسكت بها عائدة وغمغمت:

-أمي لا تتركيني! انني خائفة!

طمأنتها حياة: "مم تخافين؟ ان أطفال الجزائر يحملون السلاح ويحـاربون المستعمرين الفرنسيين.. أيجب أن يخيفنا كل فأر حمل مسدسا؟ أريـد فقـط أن أرى اذا كان من أحد مختبئا في الدار..

دخلت غرفة الإستقبال وأشعلت النور فرأت المزهريـة العزيـزة عليهـا محطمة على الأرض.. ودخلت غرفة الطعام المضاءة ورأت البراد مفتوحـا.. كانوا قد أكلوا مافيه من أقراص الكبة والحلوى ولم يعرفـوا كيـف يغلقـوه.. ابتسمت وعادت الى غرفة نومها فوجدت عائدة مستلقية على الفراش وقالت:

-أمي، دعيني أنام قربك ريثما يعود والدي!

ضمتها حياة وهي تمسّد شعرها، ولكنها لم تستطع النـوم ومـا لبثـت أن انتفضت مرة أخرى:

-هل تسمعين؟ ان الباب يفتح ويغلق..

-هذا بابا.. انها وقع أقدامه.. إذهبي الى غرفتك الآن واطمئني!

ولم يلبث أن دخل الدكتور عادل الغرفة وحمل عائدة التي أخذت تجهـش بالبكاء فلما سألها عن سرّ بكائها قالت:

-خفت عليك! وفسّرت حياة الأمر:

-جاء ثلاثة من رجال الأمن يسألون عنك.. تصوّر! لقد دخلوا من الشرفة!

لم ينبس عادل بكلمة، حمل عائدة وأودعها فراشها وقبّلها وغطاها بحنـان بالغ.. قال لحياة "أعطني حبتي دولفران!" كان وجهه ممتقعا داكنـا كحالـه اذ يكون هناك أمر خطير..

-هل تحب أن آتيك بشراب الليمون؟

-لا، أفضل شيئا ساخنا.. ملّيسة ان أمكن..

وأسرعت مها الى المطبخ، وأشعلت الفرن ووضعت عليه الأبريق فتبعهـا زوجها وقال لها وهو يحدق بعين الفرن الملتهبة:

-رهيب ما جرى.. ان الأمر لا يصدق.. قتلوه ورموه الى أمه المـسكينة جثة مشوهة.. الشعر البني اللامع محترق، والوجه الطلـق منـتفخ، والعينـان الواسعتان اللتان تفيضان بالرقة، أحاطت بهما زرقة داكنة.. مات وهم يـشوون رأسه على المدفأة!

-من هو الشاب؟ مسكينة أمه! هل نعرفه؟

-إحسان...!

-إحسان الذي نعرفه؟ زوج مليحة!..

وهزّ دكتور عادل رأسه!.. "أتعرف ما جرى له؟" قالت مها..

-حتى الآن لا تعرف شيئا.. فإياك أن تخبريها ذلك.. انها تجنّ!

وبكت حياة فمليحة صديقة مقرّبة اليها.. كانت عيناها زائغتين وهي تصب المليسة في الكوبين وتضع فيهما قطع السكر.. غصّ قلبها بحزن فـاجع علـى إنسان لم تعرفه ولكنها تسمع عن مزاياه من صديقتها مليحة.. وأزّ في صدرها الحقد اللاهب على جلادي الشعب:

-لو دفنهم الشعب وهم أحياء هل يستوفي منهم ما أنزلوه من بـلاء فـي مئات الناس؟ الحمد لله أن أحمد لم يقع في أيديهم.. لقد سافر الى لبنان!

لم تلبث أن برزت عائدة في باب المطبخ، ونظرت بعينين وجلتـين الـى والدها واندفعت نحوه فحملها ووضعها في حجره وجس نبضها.. كـان قلبهـا الصغير يخفق متسارعا، ولمس جبينها وقال:

-حرارتها مرتفعة!

وذهب الى الصيدلية في طرف المطبخ وتناول حبة اسبرين، أعطاها اياها فابتلعتها في صمت.. وأخذ يعبث بأنفها الصغير ويبتسم لها فعانقتـه وتعـابير وجهها متهدّجة ببكاء تكاتمه..

لم يكد يرشف الدكتور عادل كوبه من المليسة حتى رنّ جـرس البـاب، وأخذت عائدة ترتجف في حجره وتشد عليه الوثاق، وهبت حياة وهـي تـضع الكوب من يدها وقد شحب وجهها:

-لعلهم عادوا.. ماذا نفعل؟ هل أفتح الباب؟

وهز رأسه وهو يحمل عائدة ويضعها مكانه على الكرسي ويقول:

-لا تخافي يا بابا! أحب أن تكون ابنتي شجاعة!

قبّل زوجته دون أن ينبس بكلمة فلقد كان الجرس يرن رنينـا متواصـلا منذرا في الليل فأيقظ الطفل الرضيع الذي أخذ يعول.. وفتح الـدكتور عـادل الباب وتبعته حياة ممسكة بيد ابنتها.. وشاهدت الوجوه الثلاثة التي روّعتها من نومها، وقال ذو الضحكة الغبية المستهترة:

-لدينا معك حديث!

-انني مستعد لكل حديث!

وقادهم الى غرفة الإستقبال.. وودّت حياة لو تدخل هي الأخـرى، الاّ أن زوجها أشار اليها أن تأخذ عائدة وتذهب.. ولكن أنى لها أن تصغي اليه وهـي

في قلقها المدمّر.. أسرعت الى المطبخ وصبّت المليسة في بزازة.. وذهبت الى غرفة نومها ووضعتها في فم الصغير فصمت، وقالت لعائدة: أسندي البـزازة لأخيك حتى تفرغ، واحمليه قليلا حتى يتجشأ فيرتاح وينام.. أريد أن أعرف ما يجري في غرفة الإستقبال..

ارتدت روبا فوق غلالتها وترسّلت على رؤوس أصابعها ووقفـت جانبـا تصغي بجوارح متوترة وصدر خافق الى مايدور في الـداخل مـن حـديث، وسمعت زوجها يقول:

-انني لا أحيد أبدا عن رأيي بأن الوفاة كانت بسبب التعذيب. انه لم يمـت منتحرا.. ولا يمكنني بحال أن أكتب تقريرا مزوّرا.. لقد أطلق عليه الرصاص بعد أن فقد الحياة..

-انك لا تدري أي شيء يكلفك مثل هذا القول..

-أعرف شيئا واحدا، أن عليّ أن لا أخون شرف مهنتي!

-لا تغامر بنفسك.. لديك زوجة وأطفال.. لا تتحـدّانا! شـاهدت بعينيـك مصير من يتحدانا..

-هذا موقفي، ولن يثنيني عنه شيء..

وأحسّت حياة أن قلبها يقفز من بين ضلوعها وهي تـصغي الـى حركـة خروجهم من غرفة الإستقبال، وتنحت الى الدهليز فشاهدت الرجـال يقـودون زوجها أمامهم.. وعوّلت على أن لايراها حتى لا يبدر منها موقـف ضـعف.. وأصغت الى صوت انغلاق البوابة يعول في قلبها ولكنها لم تدمع، ووقفت على الشرفة تطلّ على الليل والنجوم وتستنشق الهواء ملء رئتيها وهبت على وجهها نسمة برود من نسمات دمشق الربيعية العليلة عند السحر فتأوهت.. وهاجمتهـا موجة القلق والروع لما حدّثها به زوجها عن زوج مليحة.. ولكنهـا طمأنـت نفسها بأن زوجها لا ينتمي الى أي حزب، وليس له نـشاط سياسـي كإحـسان

وأحمد! وله صداقات مع كل الطوائف والأحزاب.. ومع ذلك لم ينج وعائلته من قبضة زبانية العهد.. وأحست كأنها تسير وحدها في غابة يلفها الظـلام تـبضّ فيها عيون شرسة نارية.. وضربت الأرض بقدمها وهتفت فـي وجـه الليـل والنجوم:

-أهذه وحدة أم نكبة؟..